الفصل الثالث

البلاغة وصلتها بالدعوة

● أولا ـ البلاغة :

منذ العصر الجاهلى وصناعة الكلام تجد بين العرب سوقا نافقة ، وأخبار أسواقهم الأدبية ، وتفاخرهم بالبيان ، واحتكامهم الى النقاد أوضح من أن يشار اليها ·

ولعل العرب من اكثر الأمم معرفة لقدر البيان ، وادراكا لخطره ، بل واحساسا بأثره واستجابة له · فكم من بيت من الشعر رفع وضيعا ، أو وضع رفيعا · وكم من شعر قتل قائله وأورده موارد الهلكة ، وكم من شعر أمد قائله أو المتمثل به بطاقة نفسية جبارة ، تذهب روعه وتثبت فؤاده ·

يروى أن معاوية أوصى ابنه يزيد قائلا : يابنى : ارو الشعر وتخلق به ، فلقد هممت يوم صفين بالفرار مرات ، فما ردنى عن ذلك الا قول ابن الاطنابة(١) :

أبت لى همتى وأبى بلائى   وأخذى الحمد بالثمن الربيح
واقدامى على المكروه نفسى   وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت   مكانك تحمدى أو تستريحى
لأدفع عن مكارم صالحات   وأحمى بعد عن عرض صريح(٢)

---

(١) ابن الاطنابة هو : عمرو بن عامر بن زيد مناة الكعبى الخزرجى ·· شاعر جاهلى ، كان أشرف الخزرج ، اشتهر بنسبته الى أمه « الاطنابة » بنت شهاب من بنى القين ·

وفى الرواة من يعده من ملوك العرب فى الجاهلية · كانت اقامته بالمدينة ، وكان على رأس الخزرج فى حرب لها مع الأوس ·· انظر الأعلام جـ ٥ ص ٢٣٨ ·

(٢) الأمالى لأبى على القالى · طبعة دار الكتب جـ ١ ص ٨
ـ المشيح : الجاد المبادر · ـ جشأت : نهضت وارتفعت من حزن ونحوه ·
ـ جاشت النفس : غليت أو استدارت للغثيان كتجيشت ·

ومن هنا كان اهتمامهم بالبيان ، وفخرهم بالشاعر ينبغ فى القبيلة فتهنأ به ، وتقام الولائم والأفراح ٠

وقد دفعهم هـذا الى محاولة الكشف عن سره ٠ من أين له هـذا التأثير الذى يلهب النفوس حماسا ، ويدفعها الى البذل والتضحية ، أو يستل حقدها ويملؤها سماحة وحلما ، ويثير كوامن الخير ومشاعر الانسانية النبيلة فيها ؟

من أين له تلك الهيمنة على النفوس حتى لترى الناس يستمعون الى الشاعر أو الخطيب وكأن على رؤوسهم الطير ، يميلون معه حيث مال ، ويصدقونه فيما يدعى ٠٠ ينفرون اذا استنفرهم ، ويصفحون اذا حبب اليهم الصفح ؟

● دوافع البحث البلاغى :

هذا الاحساس الفطرى بقيمة البيان وخطره ، هو الذى أثار فيهم كل هذه التساؤلات ، فراحوا يتلمسون أسباب التفاوت بين كلام وكلام ، ويتتبعون الفرق بين بليغ وبليغ ٠

واذا كان العصر الجاهلى قد مضى دون أن يخلف وراءه سوى طائفة من الأحكام النقدية العامة ، التى يصدرها نقاد الكلام على الأعمال الأدبية ، التى كانت تعرض عليهم فى الأسواق والمحافل فان نزول القرآن الكريم بلسان عربى مبين وتحديه للعرب أن يأتوا بمثله أو بشىء من مثله ، قد تركهم ذاهلين على أنفسهم لا يدرون ما يقولون فيه ، بعد أن بهرهم بمحكم أياته وبديع بيانه ٠

ان نزول القرآن الكريم على هذا الوضع قد أعطى القضية أبعادا جديدة وخلق دوافع قوية للبحث لم تعرفها الحياة العربية قبل نزوله ٠

فمن جهة كانت قضية الاعجاز حافزا للعلماء على دراسة القرآن اثباتا لاعجازه ، وبيانا لمنزلته ، وتعليلا لروعته وسموه ، لأنهم رأوا فى ذلك هدفا دينيا يجب أن يحتل المكان الأول بين اهتمامات العلماء ٠ ذلك لأن اعجاز القرآن يؤدى بالضرورة الى الايمان بما فيه ، والاذعان له ، ويعبر الامام عبد القاهر عن ذلك بقوله : « وجملة الأمر أنه ان قيل : انه ليس فى الدنيا علم قد عرض للناس فيه من فحش الغلط ، ومن قبيل

التورط ، ومن الذهاب مع الظنون الفاسدة ما عرض لهم فى هـذا الشأن ، ظننت أن لا يخشى على من يقوله الكذب · وهل عجب أعجب من قوم عقـلاء يتلون قول الله تعـالى :

« **قل لئن اجتمعت الانس والجـن عـلى أن يأتوا بمثـل هـذا القـرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** »(١) ·

ويؤمنون بـه ويدينون بأن القـرآن معجـز ، ثم يصدون بأوجههم عن برهان الاعجاز ودليله ، ويسلكون غير سبيله»(٢) ·

ومن جهة ثانية فان قضية الاعجاز نفسها كانت وراء جهود مشكورة بذلها العلماء الأجلاء متصدين لـما أثارته طائفة من الملاحدة الذين تسـللوا بين المسلمين ، بعد أن اتسع نطاق الدعوة الاسـلامية ، وتغيرت صـورة المجتمع ، وأصبح يضم أخلاطا من الشعوب والأجناس والثقافات واللغات · وفى ظل سماحة الاسلام برز هؤلاء ينفثون سمومهم ، وينفسـون عما تنطوى عليه صدورهم من حقد دفين لهذا الـدين الذى أدال دولهم ، وعفى عـلى آثار حضاراتهم ، فيجاهرون بأن القرآن لا يفضـل غيره من الكلام المأثـور ، بل ربما وقع دونه · كالذى يرويه الباقلانى : « وذكر لى بعض جهـالهم أنه يعدل القرآن ببعض أشـعار العرب ، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضـله عليـه · وليس هـذا ببديع من ملحـدة العصر » (٣) ·

ويعلن آخرون أنهم يسلمون بعجز العرب عن الاتيان بمثل القـرآن ، ولكن ذلك لم يكن لخاصة فيه ، وصفة لا يمكن ادراكها ، بل لأنهم صرفوا عن معارضته وسلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة ·

وينهض العلماء بالرد على كل ذلك ، فنرى الجاحظ يرد على أسـتاذه النظام صاحب مذهب الصرفة ، كما نرى أبا الحسن على بن عيسى الرمـانى المتوفى عـام ٣٨٦ هـ يؤلف رسـالة « النكت فى اعجـاز القرآن » ويؤلف الخطابى المتـوفى عام ٣٨٤ هـ « البيان فى اعجـاز القرآن » ، ويسـهم الباقلانى بأكبر نصيب فى هـذا الجانب بكتابه « اعجاز القرآن » ·

---

(١) الاسراء : ٨٨

(٢) دلائل الاعجاز ص ٢٨٢

(٣) اعجاز القرآن ص ٤

ومن جهـة أخرى كانت هناك دعوات هدفها ليس انكار الاعجاز فقط بل الطعن فى بلاغة القرآن ذاتهـا ، كالذى يروى عن أبى عبيـدة معمر ابن المثنى البصرى ، قال : أرسل الى ابن الربيع ، والى البصرة ، فى الخروج اليه سنة ثمان وثمـانين ومـائة · فقدمت الى بغـداد ، واستأذنت عليه ، فأذن لى ، فدخلت عليه ، ثم دخل رجل فى زى الكتاب له هيئة ، فأجلسه الى جانبى وقـال لى : انى كنت مشـتاقا وقد سئلت عن مسـألة · افتأذن لى أن أعرفك اياها ؟ فقلت : هات · قال : قال الله تعالى : « **طلعها كانه رؤوس الشـياطين** »(١) ·

وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله ، وهـذا لم يعرف · قلت : انما كلم الله تعالى العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرىء القيس :

أيقتـلنى والمشرفى مضـاجعى
ومسـنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لـما كان أمر الغول يهولهم أوعـدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك واستحسن السائل ، وعزمت من ذلك اليـوم أن أضع كتابا فى القرآن فى مثـل هذا وأشباهه ، وما يحتاج اليه من علمـه ، فلما رجعت الى البصرة عملت كتابى الذى سميته « المجـاز »(٢) ·

وتبعه فى هذا الاتجاه ابن قتيبة ، فالف كتـابه « مشكل القرآن » وكان همه فيه الدفاع عن القرآن · والرد على الطاعنين فى وجوه القراءات ، وفيما ادعى على القرآن من اللحن ومن التناقض والاختـلاف ، أو من وجـوه التشابه والاستحالة وفساد النظم ·

فاذا أضفنا الى ما سبق تلك الثورة العلمية التى أشعلها الاسلام فى المجتمع الاسلامى ، متمثلة فى علوم اللغة من نحو وصرف وعلوم التفسير والكلام وكلها كانت فى منشئها ترمى الى الحفاظ على لغة القرآن الكريم وتفسيره ، وتعرض أصحابها فى بحوثهم لبعض مسائل البـلاغة والبيان ، وعندما أصبحت الكتـابة حـرفة لها أصـحابها المعتنون بها ، أسهم هـؤلاء أيضا فى هـذا المضمار بوصـاياهم التى كانوا يضعـونها فى أصـول صناعتهم ، كوصية عبد الحميد الكاتب التى وجهها الى الكتاب ، ووصـية ابن المقفع ، والجـاحظ ·

---

(١) الصافات : ٦٥

(٢) معجم الأديان لياقوت · ص ١٥٨

وفى ظل هذه الوفرة من الدوافع الى البحث البلاغى – التى أشرنا اليها – نضج كثير من البحوث البلاغية فى فترة وجيزة جدا · فما أن انتصف القرن الخامس الهجرى ، حتى كانت البلاغة قد اكتمل بناؤها ، وبلغت ذروتها على يد الامام عبد القاهر الجرجانى ، الذى أخمل سابقيه وأيأس لاحقيه ، بما بذله من جهد فكرى جبار فى معالجة قضايا البلاغة ، وتوطيد أركانها ، والوصول بها الى درجة من التكامل والوضوح ، مما يعد بحق أكبر جهد بذله مفكر فى هذا المجال · أما من أتى بعده فلم يزد على ضبط آرائه وتقنينها – ان صح هذا التعبير – ووضعها فى صورة قواعد محددة تضبطها التعاريف الجامعة المانعة ، ويغلب عليها الأسلوب المنطقى الجاف ، الذى لا يحرك وجدانا ، ولا ينمى ذوقا · واذا اعترفنا لمنهجهم بتيسير استظهار هذه القواعد للدارسين ، فلابد أن نسجل عليهم أنهم قد نأوا بالبيان عن هدفه من ارهاف الحس ، وتنمية الذوق ، وصقل الملكات، حتى أصبحت البلاغة قواعد تحفظ وتردد ويتوارثها العلماء طبقة بعد طبقة ·

● منهج البحث البلاغى :

قلنا ان البحث البلاغى ، قد حقق نتائج باهرة ، خاصة على يد الامام عبد القاهر ، فى الوصول الى هدفه الأساسى ، الذى يتمثل فى محاولة العثور على اجابة واضحة للتساؤل الفطرى عن سر الجمال فى التعبير ، وأسباب تأثيره العميق فى النفوس ، وتحريكه لكوامنها ، لتصبح هذه الاجابة فى النهاية قواعد مطردة ، وخصائص معينة ترشدنا الى الطرق والوسائل التى تجعل للكلام حظا من الحسن والتأثير والجمال ·

وطبعى أن يكون مجال بحثهم هو النصوص الأدبية ، التى يرون فيها هذا الحسن والتأثير ، لأنه لابد لكل حسن نحسه فى الكلام من أن يكون له مصدر معلوم ، وعلة معقولة ، وأن يكون هناك سبيل الى التعبير عنه ·

يقول الامام عبد القاهر : « وجملة ما أردت أن أبينه لك ، أنه لابد لكل كلام نستحسنه ، ولفظ نستجيده ، من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة ، وعلة معقولة ، وأن يكون لنا الى العبارة عن ذلك سبيل ، والى صحة ما ادعيته من ذلك دليل · وهو باب من العلم اذا أنت فتحته اطلعت منه على فوائد جليلة ، ومعان شريفة ، ورأيت أن له أثرا فى الدين عظيما ، وفائدة جسيمة ، ووجدته سببا الى حسم كثير من الفساد فيما يعود الى التنزيل ، واصلاح كثير من الخلل فيما يتعلق بالتأويل ، وأنه يؤمنك من

أن تغالط فى دعواك وتدافع عن مغزاك ، وبربأ بك عن أن تستبين هـدى ثم لا تهتدى اليه ، وتدل بعرفان ثم لا تستطيع أن تدل عليـه ، وأن تكون عالمـا فى صورة مقلد ، ومستبينا فى صورة شاك ، وأن يسألك السـائل عن حجة يلقى بها الخصم فى آية من كتاب الله أو غير ذلك فلا ينصرف عنـك بمقنع ، وأن يكون غاية ما لصاحبك منك أن تحيله على نفسه وتقـول : قد نظـرت فرأيت فضـلا ومـزية ، وصـادفت لذلك أريحية ، فانظر لتعرف كما عرفت ، وراجع نفسك ، واسبر وذق ، لتجد مثل الذى وجدت ، فان عرف فذاك ، والا فبينكما التناكر ، تنسبه الى سوء التأمل ، وينسبك الى فساد فى التخيل »(١) .

وواضح أن عبد القاهر يرى أن للحسن أسـبابا موضـوعية يمكن ادراكها والتعبير عنهـا ، غير أنه يجب أن نلاحظ أن ادراك هـذا الحسـن ليس الشأن فيه كالعلوم المضبوطة بقواعد لا تتخلف ، بل ان أمر الجمال أدق وأخفى ، حيث لا ميزان له الا القرائح والأذواق ، ويحتـاج ادراكه الى استعداد فطرى ، وطبيعة خاصة ، ذات حس مرهف ، وذكاء لمـاح .

« واعلم أنه لا يصادف القول فى هـذا الباب موقعا من السـامع ولا يجـد لديه قبولا ، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة ، وحتى يكون ممن تحدثه نفسه بأن لمـا يومىء اليه من الحسن واللطف أصلا ، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام فيجد الأريحية تارة ، ويعرى منها أخرى ، وحتى اذا عجبته عجب ، واذا نبهته لموضـع المزية انتبـه ، فأما من كانت الحالان والوجهـان عنده أبدا على سواء ، وكان لا يتفقـد مـن أمر النظم الا الصحة المطلقة ، والا اعرابا ظاهرا ، فما أقل ما يجدى الكلام معه » (٢) .

وقد لا يستطيع الناقد أن يصل الى معرفة السبب الذى جعل الكلام جميلا ولكن ذلك لا يجب أن يكون سببا لليأس من الوصول اليه بل لابد أن يتخذ المرء ما يعرفه سبيلا الى مالا يعرفه وأن يبـذل الجهـد للوصـول الى هـذه المعرفة مؤمنا بأن كثيرا من هـذه الأسباب لم يهتد اليه السابقون ، وأن فى استطاعة اللاحقين أن يهتدوا اليه (٣) .

ومضى العلماء على هـذا المنهج فى دراسـتهم للنصوص يتلمسـون أسباب الجمال ومظاهره ، ويسجلون نظراتهم وخواطرهم ، ليجعلوا منها مقاييس وقواعد مطردة ، لتكون معالم يهتدى بها الناقد ، ويستعين بها المتـأدب .

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٣٣ ـ ٣٤ (٢) المصدر السابق ص ٢٢٥

(٣) انظر أسس النقد الأدبى عند العرب ص ٩١

قالت سمية قد وغيت بأن رأت
حقا تناوب ما لنا ووفـــودا

غى لعمــرك لا أزال أعوده
مادام مال عنــدنا موجــودا

المعنى « ذاك غى لا أزال أعود اليه فدعى عنك لومى » • ثم يدعو القارىء الى أن يستقريها بيتا بيتا ، وينظر الى موقعهـا فى النفس ، والى ما يجده من اللطف والظرف اذا مر بموضع الحذف منها • ثم يتكلف أن يرد ما حذف الشاعر منها وأن يخرجه فى لفظه ويوقعه فى سمعه ، فانه سـيدرك الفرق بين العبارتين ، وأن حذفه أحســن من ذكره ، واضــماره فى النفس أولى وآنس من النطق به » (١) •

ثم ينتقل الى دراسة أسلوب الحذف للمفعول فيشير الى أن النطائف فيه أكثر ، وما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر •

ويذكر من مواقعه أن يكون غرض المتكلم فى ذكر الفعل المتعــدى أن يقتصر على اثبات المعنى الذى اشتق منه للفاعل ، من غير أن يتعرض لذكر المفعول فيكون الفعل المتعدى كغير المتعدى،فى أنك لا ترى له مفعولا لا لفظـا ولا تقديرا ويمثل له بقوله تعالى : « **قل هل يســتوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » (٢) المعنى هل يستوى من له علم ومن لا علم له من غير أن يقصد النص على معلوم وكذلك قوله تعالى : « **وأنه هو أضحك وأبكى • وأنه هو أمات وأحيا** » (٣) ، وهكذا كل موضــع كان القصد فيه أن يثبت فى نفســه فعلا للشىء وأن يخبر أن من شأنه أن يكون منه أو لا يكون الا منه ، أو لا يكون منه ، فان الفعل لا يتعدى هناك لأن تعديته تنقص الغرض وتغير المعنى ، ألا ترى أنك اذا قلت : هو يعطى الدنانير • كان المعنى على أنك قصــدت أن يعلم السامع أن الدنانير تدخل فى عطائه ، أو أنه يعطيها خصوصا دون غيرها وكان غرضك فى الجملة بيان جنس ما تناوله الاعطاء لا الاعطاء فى نفسه ، ولم يكن كلامك مع من نفى أن يكون فيه اعطاء بوجه من الوجوه ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٢ ــ ١١٧ •
(٢) الزمر : ٩ •
(٣) النجم : ٤٣ ، ٤٤ •

بالجمال والتأثير · ثم أن يحدد مسائلها ويذكر أقسامها ويبرز أسرارها البلاغية وأثرها فى جمال الكلام وسمو التعبير وقد وصل عبد القاهر فى دراسته التطبيقية هذه الى ذروة كشفت عن شخصيته التى اجتمع لها الذكاء اللماح والحس المرهف والعبقرية المبدعة ·

ولنستعرض بعض جهوده فى مجال التطبيق لنظرية النظم ودراساته للفنون البلاغية لنرى صدق ذلك · بدراسته لأحد موضوعات علم المعانى وهو أسلوب الحذف ·

● أسلوب الحذف :

اذا نظرنا فيما قاله علماء البلاغة قبل عبد القاهر عن أسلوب الحذف لم نجد سوى اشارتهم على أن الحذف من سنن العرب فى كلامهم دون ذكر أسراره وألوانه « يقول قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ : ان العرب تستعمله للايجاز والاختصار والاكتفاء بيسير القول اذا كان المخاطب عالما بمرادها ، وذلك كقوله عز وجل : « **واذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون** » (١) وسكت عن تمام الكلام لعلم المخاطب به ، **فكان تقدير ذلك** : « واذا قيل ··· استكبروا وتمادوا وعتوا »(٢) ويمضى فى عرض بعض الأمثلة له ، ويختم الفصل بأن الحذف كثير فى كلام العرب ، واذا مر بك عرفته ان شاء الله ·

ومثل هذا نجده لدى ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ هـ · فبعد أن ذكر أن الحذف من سنن العرب أورد له بعض الأمثلة من كلام العرب ومن القرآن الكريم دون تحليل لخصائص هذا الأسلوب وأسراره البلاغية(٣) ·

ويأتى عبد القاهر فيتناول أسلوب الحذف فيرى أنه « باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر · فانك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الافادة أزيد للافادة ، وتجدك أنطق ما تكون اذا لم تنطق وأتم ما تكون بيانا اذا لم تبين » (٤) ، ثم يتعرض لأسلوب الحذف فى المبتدأ ، فيذكر أمثلة متعددة من جيد الشعر ، حذف فيها المبتدأ كقول الشاعر :

---

(١) يس : ٤٥ ·
(٢) نقد النثر ص ٦٩ ·
(٣) انظر الصاحبى ص ١٧٥ ·
(٤) دلائل الاعجاز ص ١١١ ·

نظم اللفظ وترتيبه ، حيث قدم الكاف الى صــدر الكلام ، وركبت مع أن ٠ واذا لم يكن الى الشك سبيل أن ذلك كان بالنظم فاجعله العبرة فى الكلام كله » (١) ٠

ويستدل عبد القاهر على فكرته ذلك بأن عــدم التسليم بها يؤدى الى جهالة عظيمة ، وهى أن تكون الألفاظ مختلفة المعانى اذا فرقت ، ومتفقتها اذا جمعت وألف منها كلام ٠ وذلك أن ليس كلامنا فيما يفهم من لفظتين مفيدتين مثل قعد وجلس ٠ ولكن فيما يفهم من مجمــوع كلام ومجموع كــلام آخــر نحو أن تنظر فى قوله تعــالى : « **ولكم فى القصاص حياة** » (٢) ٠

وقول الناس : « قتل البعض احياء للجميع » فانه وان كانت قد جرت عادة الناس أن يقولوا فى مثل هذا انهما عبارتان معبرهما واحد ، فليس هذا القول قولا يمكن الأخذ بظاهره ، أو يقع لعاقل شك أن ليس المفهوم من أحد الكلامين المفهوم من الآخر (٣) ٠

وعبد القــاهر يفــرق بين الأدب وغيره من الصــناعات التركيبيــة كالصياغة والنقش ٠ فيمكن للصائغ مثلا أن يصوغ سوارا على مثال آخر ، ويضمنه من الصنعة ما يكون به متماثلا معه كل التماثل ، ولا يمكن ذلك فى الكلام (٤) ٠

★ ★ ★

● ثانيا ــ مسائل النظم وفنون البلاغة :

اذا كانت البلاغة فى النظم ، فان كل بحــوث البــلاغة وألوانهــا هى مسائل النظم ، لا فرق فى ذلك بين ما اعتبره المتأخرون من عــلم المعانى ، أو البيان أو ماعدوه من وجوه تحسين الكلام ٠ فعبد القاهر لم يعرف هــذا التقسيم لبحوث البلاغة ، بل نظر اليها كلها على أنهــا مسائل تتعــلق بنظم الكلام والاتيان به على صورة جميلة معجبة ٠ وعالج الفنون البلاغية كلهــا معالجة ترمى الى هدفين واضحين فى كل دراســاته ، وهمــا : أن يؤكد ارتباطها بالنظم فيها يكون ، ومن خــــلاله تحقق أثرها فى التعبير ، وتمده

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١٩٩ ٠ (٢) البقرة : ١٧٩ ٠

(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٠٢ ٠ (٤) دلائل الاعجاز ص ٢٠١ ٠

وعلى الأديب بعد أن يعلم هذا وذاك أن يؤلف كلاما تتحقق فيه الصحة ، كما يتحقق له اختيار المناسب للمقام · وكلما قويت ملكة الاديب ودق حسه ، ونما ذوقه ، أخرج لنا أسلوبا هو فى مقام التفضيل له قدم ومكان وانما يقع التفاوت بين ناظم وناظم بمقدار ما أوتيه كل منهم من توفيق فى التقاط الألفاظ المناسبة والصيغة المناسبة بحسب الموضع الذى يريد والغرض الذى يقصد ·

« وانما سبيل معانى النحو سبيل الأصباغ التى تعمل منها الصور والنقوش ، فكما انك ترى الرجل قد تهدى فى الأصباغ التى عمل منها الصورة والنقش فى ثوبه الذى نسج الى ضرب من التخير والتدبر فى أنفس الأصباغ وفى مواقعها ومقاديرها وكيفية مزجه لها وتركيبه اياها ، الى ما لم يتهد اليه صاحبه فجاء نقشه من أجل ذلك أعجب ، وصورته أغرب ، وكذلك حال الشاعر مع الشاعر فى توخيهما معانى النحو ووجوهه التى علمت أنها محصول النظم » (١) ·

اذن فالمعنى الواحد تختلف عليه الصور التى يمكن أن يعرض فيها وتتفاوت الصور فى الجمال بمقدار التوفيق فى المؤاخاة بين المعنى والصورة الدالة عليه ·

غير أنه يجب أن يلاحظ أن المعنى لا يبقى بحاله عند تغيير الصورة بل يختلف عن الأول قطعا ، واذا كان السابقون يقولون : انه قد أتى بالمعنى على حاله ، فذلك تجاوز منهم · ويعنون بالمعنى : الغرض العام ·

« لا تكون لاحدى العبارتين مزية على الأخرى حتى يكون لها فى المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها ، فان قلت : فاذا أفادت هذه ما لم تفده تلك ، فليستا عبارتين عن معنى واحد ، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين · قيل لك : ان قولنا المعنى فى مثل هذا ، المقصد به « الغرض » الذى أراد المتكلم أن يثبته أو ينفيه · نحو أن تقصد تشبيه رجل بالأسد فتقول : زيد كالأسد ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول : كأن زيدا الأسد · فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد · الا أنك تزيد فى معنى تشبيهه به زيادة لم تكن فى الأول · وهى أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه ، وانه لا يروعه شىء ، بحيث لا يتميز عن الأسد ولا يقصر عنه ، حتى يتوهم أنه أسد فى صورة آدمى · واذا كان كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة ، وهذا الفرق الا بما توخى فى

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٧٠ ·

وتجىء به حيث ينبغى له ، وينظر فى الحروف التى تشترك فى معنى ثم ينفرد كل واحد منها بخصوصيته فى ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك فى خاص معناه · نحو ان يجىء ــ بما فى نفى الحال ، و ــ بلا ــ اذا أردت نفى الاستقبال · و ــ بأن ــ فيما يترجح بين أن يكون أو لا يكون و ــ باذا ــ فيما علم أنه كائن ·

وينظر فى الجمل التى تسرد فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل ثم يعرف فيما حقه الوصل « الواو » من موضع « الفاء » من موضع « ثم » وموضع « أو » من موضع « أم » وموضع « لكن » من موضع « بل » · ويتصرف فى التعريف والتنكير والتقديم والتأخير فى الكلام كله ، وفى الحذف والتكرار والاضمار والاظهار ، فيضع كلا من ذلك مكانه ، ويستعمله على الصحة وما ينبغى له » (١) ·

« واعلم أننا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند الى اللغة ، ولكننا أوجبناها للعلم بمواضعها ، وما ينبغى أن يصنع فيها ، فليس الفضل للعلم بأن « الواو » للجمع و « الفاء » للتعقيب بغير تراخ ، و « ثم » له شرط التراخى و « ان » لكذا و « اذا » لكذا ، ولكن لأن يتأتى لك اذا نظمت وألفت رسالة أن تحسن التخير ، وأن تعرف لكل من ذلك موضعه » (٢) ·

« فالنظم ليس شيئا غير توخى معانى النحو فيما بين الكلم ، وأنك ترتب المعانى أولا فى نفسك ثم تحذوا على ترتيبها الألفاظ فى نطقك » (٣) ·

وهكذا يشرح عبد القاهر فكرته ، ويحدد ماهية النظم ، ويبرز ملامحه فهنا دوران :

الأول : ينهض به علم النحو ، فيحكم بالصحة والخطأ على الصيغ ، ويبيح للناظم أن يستعمل صورا ، ويحرم عليه أخرى ·

الثانى : تنهض به دراسة مسائل النظم فى علم البلاغة فيبين الأحوال التى تناسب كل صيغة والتى تحقق للنظم ميزة لا تتوفر فى غيرها ·

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٦٤ ــ ٦٥ (٢) دلائل الاعجاز ص ١٩٣ ·
(٣) المصدر السابق ص ٣٤٩ ·

فعلين أن تجعل أحدهما شرطا فى الآخر ، فتجىء بهما بعد الحرف الموضوع لهذا المعنى ٠٠ » (١) وعلى هذا القياس • فالنظم اذن أن تجعل الكلمة بسبب من جارتها ، متتبعا فى ذلك ما يميزه على النحو ، ويشهد له بالصحة •

ولكن أين البلاغة فى ذلك ؟ ان الحكم على الكلام بالفضل والتقدم لا يكتفى فيه بالنظر فى صحته أو فساده من ناحية النحو • بل ينظر اليه من حيث تكون فيه أمور تدرك بالفكر اللطيفة ، ودقائق يتوصل اليها بثاقب الفهم ، فليس الجرى على الصواب فضيلة حتى يشرف موضعه ، ويصعب الوصول اليه •

وهنا يجيب عبد القاهر بأن المتكلم صانع ، له من صناعته بمقدار جهده ، وتتفاوت الجهود بمقدار ما بذل فى صنع أسلوب جميل • ذلك أنه ليست هناك صيغة واحدة لكل معنى ، يلزم الأديب بالتعبير بها • بل ان النحو يحكم بالصحة على عدد غير محدود من صيغ التعبير ، لكل منها فضيلة ليست فى الأخرى وعلى الأديب أن ينتقى من بينها الصيغة التى تناسب ما يريد من معنى ، ناظرا فى ذلك الى اعتبارات مقام القول وملابساته وأحوال المخاطب والمتكلم نفسه الى آخر ما يمكن أن يلاحظ من اعتبارات •

« اعلم أنه ليس النظم الا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه التى نهجت فلا تزيغ عنها • ذلك أنا لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه ، فينظر فى الخبر الى الوجوه التى تراها فى قولك : زيد منطلق • وزيد ينطلق • وينطلق زيد • ومنطلق زيد • وزيد المنطلق • والمنطلق زيد • وزيد هو المنطلق • وزيد هو منطلق • وفى الحال الى الوجوه التى تراها فى قولك : جاء زيد مسرعا • وجاءنى يسرع • وجاءنى وهو مسرع ــ أو وهو يسرع ــ وجاءنى وقد أسرع • وجاءنى قد أسرع • وفى الشرط والجزاء الى الوجوه التى تراها فى قولك : ان تخرج أخرج • وان خرجت خرجت • وان تخرج فأنا خارج • وأنا خارج ان خرجت • وأنا ان خرجت خارج • فتعرف لكل من ذلك موضعه ،

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠ ــ ٤١

● ماهية النظم :

يمهد عبد القاهر لشرح فكرته بأن يوضح الفرق بين نظم الحروف ونظم الكلمات · فنظم الحروف هو تواليهـا فى النطق فقط ، مـن غـير أن يكون هذا النظم ناشئا عن معنى اقتضاه ، فلو أن واضـع اللغة كان قـد قـال : ربض ـ مكان ـ ضرب ـ لمـا كـان فى ذلك مـا يؤدى الى فسـاد ، أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك ، لأنك تقتفى فى نظمها آثـار المعـانى ، وترتبها على حسب ترتيب المعانى فى النفس ·

فهو اذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ، وليس هو النظم الذى معناه ضم الشىء الى الشىء كيف جاء واتفق · لذلك كان عنـدهم نظير النسيج والتأليف والصياغة والبناء والوشى وما أشبه ذلك ، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض ، حتى يكون لوضع كل جزء حيث وضع علة تقتضى كونه هناك ، وحتى لو وضع فى مكان غيره لم يصح ·

« والفـائدة فى معـرفة هـذا الفرق انك اذا عرفته عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم أن تتـوالى الفاظها فى النطـق ، بل ان تناسقت دلالتها ، وتلاقت معانيها على الوجه الذى اقتضاه العقل »(١) ·

ثم يمضى عبد القاهر بعد بيان هـذا الفرق يوضح طبيعة العلاقات بين الكلمات ، وكيف تأتى مترابطة ترابطا يقتضيه المعنى ، فيقول :

« اعلم انك اذا رجعت الى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم فى الكلم حتى يعلق بعضـها ببعض ، ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هـذه بسـبب تلك · هـذا مالا يجهلـه عاقل · فمـا معنى ذلك وما محصـوله ؟ ·

اذا نظـرنا فى ذلك علمنا أن لا محصــول له غـير أن تعمـد الى اسم فتجعله فاعلا لفعل ، أو مفعولا ، أو تعمد الى اسمين فتجعل أحـدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثانى صـفة للأول أو تاكيدا له أو بدلا منـه أو تجىء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثانى صفة أو حالا أو تمييزا ، أو تتوخى فى كلام هو لاثبات معنى أن يصـير نفيا أو استفهاما او تمنيا فتدخل عليه الحروف الموضـوعة لذلك ، أو تريد فى

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠ ـ ٤١

● **عبد القاهر :**

جاء عبد القاهر والبلاغة على ما رأينا ، فاستطاع بثقافته وعبقريته أن يصحح مسارها بوضعه لنظرية النظم ، كما استطاع أن يصل بالألوان البلاغية والكشف عن أسرارها الى مدى لم يترك لمن أتى من بعده الا أن يدور فى فلكه ويتتلمذ عليه ، وذلك بجهوده الرائعة التى بذلها فى مجال التطبيق على نظرية النظم وانطواء كل فنون البلاغة تحت لوائها · وسنتحدث باختصار عن كل من هذين الانجازين العظيمين اللذين حققهما عبد القاهر فى مجال البحث البلاغى ·

● **أولا ـ نظرية النظم :**

ينطلق تفكير عبد القاهر فى موضوع موطن البلاغة فى الكلام من قاعدة مسلمة لديه ، وهى : أن القرآن معجز ببلاغته ، واذا كان كذلك فلابد لاعجازه من جهة يلتمس فيها ومرجع يعود اليه ·

ولا يجوز أن يكون ذلك فى الكلم المفردة لأن تقدير كونه فيها يؤدى الى المحال وهو أن تكون الألفاظ المفردة قد حدث فى مذاقة حروفها واصدائها أوصاف لم تكن فيها قبل نزول القرآن ·

كما لا يجوز أن تكون معانى الكلم المفردة التى لها بوضع اللغة ، لأنه يؤدى الى أن تكون قد تجدد فى معنى : الحمد ، والرب ، والملك ، وغيرها وصف لم يكن لها قبل نزول القرآن ·

ولا يجوز أن يكون ذلك فى تركيب الحركات والسكنات ، ولا فى أوزان الكلمات ولا فى الفواصل وأواخر الآيات ، ولا فى الجريان والسهولة والسلامة من أن تلتقى فيه حروف تثقل على اللسان ، ولا لما فى القرآن من استعارة وكناية ومجاز ، واذا امتنع أن يكون فى شىء من ذلك ، لم يبق ـ أى الاعجاز ـ الا أن يكون فى النظم والتأليف(١) · واستطاع عبد القاهر بذلك أن يقنع برأيه الذى آمن به ايمانا لا يتزعزع ، وهو أن اعجاز القرآن فى نظمه ، واعجازه ببلاغته فبلاغته فى نظمه ·

والآن الى تبين ماهية النظم وملامحه ·

---

(١) اقرأ فى هذا « دلائل الاعجاز » ، وبخاصة الصفحات : ٢٩٤ ، ٢٩٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٦٤ ، ٤٠١

وكذلك فعل أبو هلال العسكرى اذ لم يزد على أن أتى بعبارات مأثورة تمجد معرفة الفصل والوصل فى الكلام (١) .

ونجد مثل هذا فى أسلوب الحذف والقصر ، وغيرها من أبواب المعانى . مما يمكننا القول معه « بأن ما بذله عبد القاهر من جهد خصب صادق لم يتجه الى تطوير علم المعانى بل فى ايجاده » (٢) .

أما أبواب البيان من تشبيه واستعارة ومجاز وكناية فقد سبق عبد القاهر ببحوث مستفيضة فى هذه الأبواب تبين ألوانها وتجلى أسرارها البلاغية مما يمكننا من القول باستفادة عبد القاهر ممن سبقوه فى هذه الأبواب استفادة كبيرة ، وان كان من الواجب أن نثبت له فضل من أكمل البناء ، وأضاف اليه ما هدته اليه عبقريته الفريدة وذكاؤه اللماح ، وذوقه الراقى .

أما عن البديع وألوانه قبل عبد القاهر ، فان الحديث عنه مسهب مستفيض يقول السيوطى عنه « أول من اخترع ذلك ابن المعتز ، فجمع منها سبعة عشر نوعا وعاصره قدامة فجمع منها عشرين نوعا . ثم تبعهما الناس فجمع العسكرى سبعة وثلاثين ، ثم جمع ابن رشيق مثلها ، وأضاف اليها خمسة وستين بابا من الشعر وتلاهما شرف الدين الشاشى فبلغ السبعين ، ثم تكلم فيها ابن أبى الاصبع واستخرج عشرين ، وكتابه : « المحرر » أصح كتب هذا الفن لاشتماله على النقل والنقد » (٣) .

أما عبد القاهر فلم يتجه بعنايته الى البديع ولكنه تعرض لبعض ألوانه كالتجنيس والسجع من زاوية واحدة ، وهى ربط التحسين باقتضاء المعنى له .

تلك صورة البلاغة قبل عبد القاهر فلننتقل الى عبد القاهر الذى تمثل جهوده مرحلة متميزة ، حيث خطت بالبلاغة خطوات أشرفت بها على قمة ما وصلته من كمال ونضج .

---

(١) انظر الصناعتين ص ٤٢٣

(٢) انظر فصول من تطور البيان العربى ، دكتور كامل الخولى ص ٥٦

(٣) شرح عقود الجمان ص ٩٢ . هذا وقد آثرنا أن ننقل النص كاملا ونشير هنا الى أن ابن رشيق كان معاصرا لعبد القاهر اذ توفى سنة ٤٦٣ هـ وأن ابن أبى الاصبع من تابعى عبد القاهر اذ توفى سنة ٦٥٤ هـ .

وكلمة سيبويه هذه على ايجازها ربما كانت أهم ما قيل فى الموضوع قبل عبد القاهر فهى تشير الى بعض أسرار التقديم · وذلك ما لم يتعرض له غيره ممن أتى بعده من أمثال أبى عبيدة معمر بن المثنى حيث لم يتجاوز فى كتابه : « مجاز القرآن » بيان المقدم والمؤخر من غير ذكر لدواعى التقديم وأثره البلاغى مثل قوله فى مقدمة كتابه : « ومن مجاز المقدم والمؤخر قال : « فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت » (١) أراد ربت واهتزت » (٢) ·

أما ابن قتيبة فقد عقد فى كتابه : « تأويل مشكل القرآن » باب المقلوب وعد منه التقديم والتأخير فيقول : ومن المقلوب أن يقدم ما يوضحه التأخير ، ويؤخر ما يوضحه التقديم كقوله تعالى : « فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله » (٣) أى مخلف رسله وعده ، لأن الاخلاف يقع بالوعد كما يقع بالرسل فنقول : « أخلفت الوعد وأخلفت الرسل » (٤) · ويستمر هكذا فى سرد الأمثلة مسجلا لظاهرة التقديم والتأخير دون أن يشير الى سر التقديم أو أثره البلاغى ·· ونجد مثل هذا عند المبرد الذى يسمى هذا الأسلوب « التحويل » ، وينسج على منواله ابن فارس فى كتابه « الصاحبى » وكذلك يفعل قدامة بن جعفر فى كتابه : « نقد النثر » فلا يزيد على أن يذكر بعض أمثلة التقديم مثل قوله تعالى : « ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى » (٥) ثم يعقب عليها بقوله « أراد : ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما ، ثم يختم الباب بقوله : وفيما ذكرنا دليل على ما لم نذكره ان شاء الله » (٦) ·

وهكذا ظل أسلوب التقديم والتأخير حتى جاء عبد القاهر فعالجه بما لا مزيد عليه · حيث بين مكانه بين الأساليب ، وفصل ألوانه وضروبه كاشفا عن أسرار التعبير به ·

وفى الفصل والوصل لا نجد قبل عبد القاهر سوى قول الجاحظ :

« عندما سئل الفارسى عن البلاغة قال : هى معرفة الفصل والوصل » (٧) · دون أن يبين مواضع الفصل ولا مواضع الوصل بل لم يزد على هذه الجملة التى رواها ·

---

(١) الحج : ٥ . فصلت : ٣٩
(٢) مجاز القرآن ص ١٢
(٣) ابراهيم : ٤٧
(٤) تأويل مشكل القرآن ص ١٤٨
(٥) طه : ١٢٩
(٦) نقد النثر ص ٧٣
(٧) البيان والتبيين ص ٧٥

رباط بالمعنى . مما يجعلنا نعتقد أن عبد القاهر قد اقتبس فكرة النظم من قولة الجاحظ هـذه .

فاذا ألقينا بعد ذلك نظرة على جهود هؤلاء فيما يتعلق بالفنون البلاغية والكشف عن أسرارها فلن نجد لديهم الكثير ، ولعل من المفيـد أن نذكر وصف عبد القاهر لحال البلاغة قبل عصره وفى عصره حيث يقول : « أعلم أنك لا ترى فى الدنيا علما جرى الأمـر فيه بديئا وأخـيرا على ما جرى فى علم الفصـاحة والبيان ، أما البـدىء ، فهو أنك لا ترى نوعا من أنواع العلوم الا واذا تأملت كلام الأولين الذين علموا الناس وجدت العبارة فيه أكثر من الاشارة ، والتصريح أغلب من التلويح ، والأمر فى علم الفصاحة بالضد من هـذا ، فانك اذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جله أو كله رمزا ووحيا وكناية وتعريضا وايماء الى الغرض من وجه لا يفطن له الا من غلغل الفكر ، وأدق النظر ، ومن يرجـع من طبعـه الى ألمعية يقوى معها على الغامض ، ويصل بها الى الخفى » .

« وأما الأخير فهو أنا لم نر العقـلاء قد رضـوا مـن أنفسهم فى شىء من العلوم أن يحفظوا كلاما للأولين ويتدارسوه ، ويكلم به بعضهم بعضا من غير أن يعـرفوا له معنى ، ويقفوا منه على غرض صـحيح ، ويكون عندهم ـ أن يسألوا عنه ـ بيان له وتفسير ، الا علم الفصاحة .. » .

« فمن أقرب ذلك أنك تراهم يقولون اذ هم تكلموا فى مزية كلام على كلام : ان ذلك يكون بجزالة اللفظ ، واذا تكلموا فى زيادة نظم على نظم : ان ذلك يكون لوقوعه على طـريقة مخصـوصة ، وعلى وجه دون وجه ، ثم لا تجـدهم يفسرون الجزالة بشىء ، ولا يقولون فى المراد بالطريقة والوجـه ما يحلى منه السامع بطائل »(١) .

وقد يكون عبد القاهر مبالغا فى حكمه على من سبقوه ، ولكننا اذا تصفحنا كتبهم ـ وبخاصة فيما يتعلق بالموضوعات التى عرفت فيما بعد بعلم المعانى ـ أدركنا سر ضيقه واستهانته بما وجـده لديهم .

ولنذكر بعض النماذج على صدق ذلك .

ففى باب التقديم والتأخير نجد سيبويه يقول : « كأنهم يقدمون الذى بيانه أهم لهم ، وهم بشأنه أعنى ، وان كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم ، ولم يذكر فى ذلك مثالا » (٢) .

---

(١) دلائل الاعجاز . ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ (٢) المصدر السابق ص ٨٤

والآن حان موعد القاء نظرة عامة على نتائج بحوثهم ، وحصاد جهادهم ويمكننا توزيع ذلك على ثلاث مراحل : مرحلة ما قبل عبد القاهر ، ومرحلة عبد القاهر ومرحلة ما بعد عبد القاهر ، ولا نقصد هنا تتبع علوم البلاغة ومسائلها الجزئية وانما الهدف هو رسم تصور شامل للنتائج التى توصل اليها العلماء ، وبيان قيمتها العملية فى الكشف عن مواطن البلاغة فى النص ، والافصاح عن سر جماله وتأثيره · وهو ما يعنينا فى هذا البحث ·

● قبل عبد القاهر :

كانت بحوث البلاغة قبل عبد القاهر تنطلق من قاعدة مسلمة لدى العلماء جميعا ، وهى أن للعمل الأدبى : شعرا كان أو نثرا : ركنين أساسيين هما : اللفظ والمعنى ، أو الشكل والمضمون · وأنه اذا كان هناك لبعض الكلام فضل على بعض يستحق بسببه أن يلقى قبولا ، أو تنسب اليه مزية ، أو يحكم له بالسمو على غيره فلابد أن يرجع ذلك الى شىء اما فى لفظه واما فى معناه والى خصائص يمكن ادراكها فى أحد ركنيه ·

ومن هنا تباينت نظرتهم عندما بدأوا يتلمسون موطن الميزة ، ومناط الفضيلة فى الكلام ، فمنهم من رأى ذلك فى اللفظ مستخفا بشأن المعنى ، بينما اتجه آخرون الى المعنى وأخملوا جانب الصياغة والألفاظ ، ومنهم من ساوى بين كلا الركنين فى مده الكلام بالحسن والبلاغة · ولكننا نقف عند أحد هؤلاء وهو الجاحظ ، اذ نعتبر رأيه فى الموضوع هو المصدر الذى ألهم عبد القاهر نظريته فى النظم ، وذلك حين أعلن قولته المشهورة : « المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى ، والبدوى والقروى والمدنى ، وانما الشأن فى اقامة الوزن ، وتخير اللفظ ، وسهولة المخرج ، وكثرة الماء ، وفى صحة الطبع ، وجودة السبك ، فانما الشعر صياغة ، وضرب من النسج ، وجنس من التصوير »(١) ·

واذا كان البعض قد حمل كلام الجاحظ على اعتداده باللفظ دون المعنى فان الواقع غير ذلك ، فالجاحظ لم يرد الألفاظ مفردة عن تراكيبها فهو يصرح بأن شأن الكلام شأن التصوير والصياغة ، مما يدل على أنه لم يعن باللفظ الا لجلاء الصورة الأدبية ، ولهذه الصورة الأدبية أوثق

---

(١) الحيوان · للجاحظ جـ ٢ ص ١٣١ ـ ١٣٢ ·

بل مع من اثبت أن له اعطاء الا انه لم يثبت اعطاء الدنانير ، فهذا القسم من خلو الفعل من المفعول وهو ألا يكون له مفعول يمكن النص عليه(١) ٠

القسم الثانى : أن يكون للفعل مفعول مقصود ، الا أنه يحذف من اللفظ لدليل يدل عليه ، وقد يكون ذلك جليا لا صنعة فيه كقولهم :

اصغيت اليه ، أى بأذنى ٠

ومن الخفى أن تذكر الفعل وفى نفسك مفعول له مخصوص الا أنك تنسيه نفسك وتخفيه وتوهم أنك لم تذكر ذلك الفعل الا لأن تثبت نفس معناه من غير أن تعديه الى شىء ، أو تعرض فيه لمفعول مثل قول البحترى :

شجو حساده وغيظ عداه

أن يرى مُبصر ويسمع واع (٢)

المعنى لا محالة : أن يرى مبصر محاسنه ويسمع واع أخباره وأوصافه ولكنك تعلم أنه كان يسوق علم ذلك عن نفسه ويدفع صورته وهمه ليحصل له معنى شريف وغرض خاص وقال : انه يمدح خليفة ، وهو المعتز ، ويعرض بخليفة ، وهو المستعين ، فأراد أن يقول : ان محاسن المعتز وفضائله المحاسن والفضائل ، يكفى فيها أن يقع عليها بصر ويعيها سمع حتى يعلم أن المستحق للخلافة ، والفرد الوحيد الذى ليس لأحد أن ينازعه مرتبتها ، فأنت ترى حساده وليس شىء أشجى لهم وأغيظ من علمهم بأن ههنا مبصرا يرى وسامعا يعى حتى ليتمنون أن لا يكون فى الدنيا من له عين يبصر بها ، وأذن يعى معها ، كى يخفى مكان استحقاقه لشرف الامامة فيجدوا بذلك سبيلا الى منازعته اياها (٣) ٠

ومن الخفى أيضا « أن يكون معك مفعول معلوم مقصود قصده ، قد علم أنه ليس للفعل الذى ذكرت مفعول سواه بدليل الحال أو ما سبق من الكلام الا أنك تطرحه وتتناساه ، وتدعه يلزم ضمير النفس لغرض غير الذى مضى ، وذلك الغرض أن تتوفر العناية على اثبات الفعل للفاعل وتخلص له وتنصرف بجملتها وكما هى اليه » (٤) ٠

---

(١) دلائل الاعجاز ص ١١٨ ـ ١١٩ ٠

(٢) شجاه ٠ شجوا : أحزنه وأطربه ٠ والمراد الأول ٠ انظر القاموس ج ٤ ص ٣٤٩ ٠

(٣) دلائل الاعجاز ص ١٢٠ ٠ (٤) دلائل الاعجاز ص ١٢١ ٠

ويذكر لذلك أمثلة كثيرة يحللها عبرزا سر الحذف فيها ثم يقول : وان أردت تبيينا لهذا الأصل ، أعنى وجوب أن تسقط المفعول لتتوفر العناية على اثبات الفعل لفاعله ولا يدخلها شوب » فانظر الى قوله تعالى : « **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، قال ما خطبكما ، قالتا لا نسقى حتى يصدر الرعاء ، وأبونا شيخ كبير ٠ فسقى لهما ثم تولى الى الظل** » (١) ففيها حذف فى أربعة مواضع اذ المعنى : وجد عليه أمة من الناس يسقون أغنامهم أو مواشيهم ، وامرأتين تذودان غنمهما ، وقالتا لا نسقى غنمنا ، فسقى لهما غنمهما ٠ ثم لا يخفى على ذى بصر أنه ليس فى ذلك كله الا أن يترك ذكره ويؤتى بالفعل مطلقا وما ذاك الا أن الغرض فى أن يعلم أنه كان من الناس فى تلك الحال سقى ومن المرأتين ذود وأنهما قالتا : لا يكون منا سقى حتى يصدر الرعاء ٠ وانه كان من موسى عليه السلام بعد ذلك سقى ٠ فأما ما كان المسقى أغنما أم ابلا أم غير ذلك فخارج عن الغرض وموهم خلافه ٠ وذلك أنه لو قيل : وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما ٠ جاز أن يكون لم ينكر الذود من حيث هو ذود ، بل من حيث هو ذود غنم لو كان مكان الغنم ابل لم ينكر الذود ، كما انك اذا قلت : ما لك تمنع أخاك ٠ كنت منكرا المنع لا من حيث هو منع ، بل من حيث هو منع أخ ، فاعرفه تعلم أنك لم تجد لحذف المفعول فى هذا النحو من الروعة والحسن ما وجدت الا لأن فى حذفه وترك ذكره فائدة جليلة وأن الغرض لا يصح الا به » (٢) ٠

ثم يعرض علينا عبد القاهر لونا آخر من ألوان الحذف يسميه « الاضمار على شريطة التفسير » كقولهم : أكرمنى وأكرمت عبد الله ٠ أردت « أكرمنى عبد الله ، وأكرمت عبد الله » ثم تركت ذكره فى الأول استغناء بذكره فى الثانى ٠

فهذا طريق معروف وشىء لا يعبأ به ، ويظن أنه ليس فيه أكثر مما تريك الأمثلة المذكورة منه ٠ وفيه اذا أنت طلبت الشىء من معدنه من دقيق الصنعة ومن جليل الفائدة مالا تجده الا فى كلام الفحول فمن لطيف ذلك ونادره قول البحترى :

لو شئت لم تفسد سماحة حاتم
كرما ولم تهدم مآثر خالد

---

(١) القصص : ٢٣ ، ٢٤ ٠

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٢٤ ـ ١٢٥ ٠

الأصل لا محالة : لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها ثم حذف ذلك من الأول استغناء بدلالته فى الثانى عليه • ثم هو على ما تراه وتعلمه من الحسن والغرابة ، وهو على ما ذكرت لك من أن الواجب فى حكم البلاغة ألا ينطق بالمحذوف • فليس يخفى عليك أنك لو رجعت الى ما هو أصله فقلت : لو شئت أن لا تفسد سماحة حاتم لم تفسدها • صرت الى كلام غث والى شىء يمجه السمع وتعافه النفس • وذلك أن فى البيان بعد الابهام وبعد التحريك له أبدا لطفا ونبلا لا يكون اذا لم يتقدم ما يحرك ، وأنت اذا قلت : لو شئت ، علم السامع أنك قد علقت هذه المشيئة فى المعنى بشىء ، فهو يضع فى نفسه أن ههنا شيئا تقتضى مشيئته له أن يكون أو أن لا يكون فاذا قلت : لم تفسد سماحة حاتم • عرف ذلك الشىء • ومجىء المشيئة بعد ـ لو ـ وبعد حروف الجزاء هكذا موقوفة غير معداة الى شىء كثير شائع ، كقوله تعالى : « **ولو شاء الله لجمعهم على الهدى** » (١) وقوله : « **ولو شاء لهداكم أجمعين** »(٢) والتقدير فى كل ذلك ما ذكرت • فالأصل « لو شاء الله أن يجمعهم على الهدى لجمعهم » و « لو شاء أن يهديكم أجمعين لهداكم » الا أن البلاغة فى أن يجاء به كذلك محذوفا » (٣) •

وقد يتفق أحيانا أن يكون اظهار المفعول هو الأحسن كقول الشاعر :

ولو شئت أن أبكى دما لبكيته
عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

وسبب الجمال فى اظهار المفعول « انه كأنه بدع عجيب أن يشاء الانسان أن يبكى دما • فلما كان كذلك كان الأولى أن يصرح بذكره ليقرره فى نفس السامع ويؤنسه به »(٤) •

وقد يكون حذف المفعول مخافة أن يتوهم السامع فى بدء الأمر شيئا غير مراد ثم ينصرف الى المراد كما فى قول البحترى :

وكم ذدت عنى من تحامل حادث
وسورة أيام حززن الى العظم (٥)

« فالأصل لا محالة حززن اللحم الى العظم ، الا أن فى مجيئه به محذوفا واسقاطه من النطق فائدة جليلة ، وذلك أن من حذق الشاعر أن يوقع

---

(١) الأنعام : ٣٥ •
(٢) النحل : ٩ •
(٣) دلائل الاعجاز ص ١٢٦ •
(٤) دلائل الاعجاز ص ١٢٦ ، ١٢٧ •
(٥) سورة الخمر وغيرها ، والمراد هنا : شدتها • القاموس المحيط جـ ٢ ص ٥٤ •

المعنى فى نفس السامع ايقاعا يمنعه به من أن يتوهم فى بدء الامر شيئا غير المراد ثم ينصرف الى المراد • ومعلوم أنه لو أظهر المفعول فقال : وسورة أيام حززن اللحم الى العظم • لجاز أن يقع فى وهم السامع — الى أن يجىء الى قوله : الى العظم — أن هذا الحز كان فى بعض اللحم دون كله ، وأنه قطع ما يلى الجلد ولم ينته الى ما يلى العظم ، فلما كان كذلك ترك ذكر اللحم وأسقطه من اللفظ ليبرىء السامع من هذا ويجعله بحيث يقع المعنى منه فى أنف الفهم (١) ويتصور فى نفسه من أول الأمر أن الحز مضى فى اللحم حتى لم يرده الا العظم »(٢) •

وبعد : فهذا عرض موجز لجهود عبد القاهر فى أسلوب الحذف ولم يسبق فيه كما رأينا الا بتلك الاشارة الى أنه من سنن العرب فى كلامهم وها هو ذا يتناوله فيجمع النصوص التى تتضمنه ثم يضعها تحت أنوار بصيرته الثاقبة وذوقه الراقى ، وحسه المرهف فيخرج لنا كل ما رأيناه من الوان وفنون ، ويكشف عن أسراره البلاغية ودواعى التعبير به ، فى أسلوب مشرق نراه اليوم أقرب ما يكون الى ذوقنا المعاصر ، وكأن صاحبه مازال يعيش بيننا ، فلا أثر فيه لغموض أو التواء ، وكذلك كان منهجه فى كل ما تناوله بالدراسة من أبواب • بل نجده قد اهتدى الى ألوان من الأساليب لم يحم حولها أحد قبله ، كابتكاره لأسلوب المجاز الحكمى ، ولعل هذا يفسر لنا قول صاحب الطراز « وأول من أسس من هذا الفن — يعنى البلاغة — قواعده وأوضح براهينه ، وأظهر فوائده ، ورتب أفانينه ، الشيخ العالم النحرير ، علم المحققين : عبد القاهر الجرجانى » (٣) •

والآن لنلق نظرة على البلاغة بعده ••

● البلاغة فى مدرسة السكاكى :

لم تلبث البلاغة بعد عبد القاهر أن خمدت جذوتها ، وذهب رواؤها ، ودخلت فى طور من الجمود ، واتجهت الى التقنين والتقسيم والتعريف ومحاولة حصر المسائل وضبط الأقسام ، وافتقدنا فى بحوثها تلك الروح الأدبية التى كانت تتناول فنونها على أساس من الذوق الذى هذبته المعرفة

---

(١) أنف الفهم : أوله • (٢) دلائل الاعجاز ص ١٣١ — ١٣٢ •

(٣) الطراز جـ ١ ص ٤ •

والحس المرهف الذى غذته الثقافة ، والتى كان منهجها الدراسة التطبيقية للنصوص ، تستوحى أسرار جمالها ، وتكشف عما فيها من الوان الأساليب وفنون الكلام ٠

وانتهى الأمر بالبلاغة الى أن أصبحت تعريفات تحفظ ، وأمثلة تتوارث وغلب عليها الأسلوب المنطقى الجاف الذى لا يحرك وجدانا ، ولا ينمى ذوقا ٠

ولعل أبرز من ظهر فى هذه الفترة أمامان : أولهما أبو يعقوب السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ صاحب « مفتاح العلوم » الذى ضم اثنى عشر علما من بينها علم البلاغة ٠ وثانيهما : الخطيب القزوينى المتوفى سنة ٧٣٩ الذى اختصر بلاغة المفتاح وسماه « تلخيص المفتاح » وقد اكب العلماء على شرح هذا التلخيص وداروا فى فلكه يبدؤن القول ويعيدون مما وقف بالبلاغة حيث انتهى بها السكاكى واصبح يطلق على هؤلاء « مدرسة السكاكى » ٠

وقد سيطرت طريقتهم تلك على مجال البحث البلاغى حتى وقت قريب ٠ فماذا عند هؤلاء ؟

بعد أن كانت البلاغة عند عبد القاهر يجمعها اطار النظم الذى يضم كل ما يمد الكلام بالجمال ، وكانت ألفاظ الفصاحة والبلاغة والبيان وما شاكلها تطلق كألفاظ مترادفة المعانى ، تطور ذلك الوضع واختصت الفصاحة بالجمال الذى يعود الى اللفظ ، فأصبحت فصاحة اللفظ تعنى خلوه من تنافر الحروف ومن الغرابة ومخالفة القياس اللغوى ٠ وفصاحة الكلام تعنى خلوه من ضعف التاليف وتنافر الكلمات والتعقيد اللفظى والمعنوى ، مع فصاحة كلماته ٠

وهذا كله تحدث عنه عبد القاهر ، فقد قال : « وأما رجوع الاستحسان الى اللفظ من غير شرك المعنى فيه وكونه من أسبابه ودواعيه فلا يكاد يعدو نمطا واحدا ، وهو أن تكون اللفظة مما يتعارفه الناس فى استعمالهم ويتداولونه فى زمانهم ، ولا يكون وحشيا غريبا » (١) ٠ وهذه هى الغرابة ٠

---

(١) أسرار البلاغة ص ٣ ـ ٤ ٠

ويقـــول : « اعلم أننا لا نأبى أن تكون مذاقة الحــروف وسلاســتها مما تثقل على اللسان داخلا فيمــا يوجب الفضــيلة وأن تكون مما يؤكـد الاعجاز » (١) · وهذا هو الخلو من تنافر الحروف ·

ويقول فى شرحه لماهية النظم وأنه توخى معانى النحو :

« فليس من أحــد يخالف فى نحو قول الفرزدق :

وما مثله فى الناس الا مملكا
أبو أمه حى أبوه يقـــاربه

وفى نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم وعابوه من جهــة ســوء التأليف · أن الفساد والخلل كانا أن تعاطى الشاعر · ما تعاطاه فى هذا الشأن على غير الصواب ، وصنع فى تقديم أو تأخير أو حذف واضمار أو غير ذلك ما ليس له أن يصنعه » (٢) · وهذا هو التعقيد ·

وهكذا يشير عبد القــاهر الى كل ماعــده المتأخرون من الفصــاحة ، وان جاء عنده مفرقا وفى مناسبات تقتضيه ·

أما عن بلاغة الكلام فقد أصــبحت تعنى عنــدهم « مطـــابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته » واذا عدنا الى تفسيرهم لهذا التعريف وجــدنا لديهم نفس ما عناه عبد القاهر بالنظم ·

يقول صاحب « المطول » عند شرح تعريف البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال : « وأن الحال هو الأمر الداعى الى التكلم على وجه مخصوص أى أن يعتبر مع الكلام الذى يؤدى به أصل المعنى ، خصوصية ما ·

وهذه الخصوصية التى تلاحظ فى تأليف الكلام هى مقتضى الحال » ثم يمضى فى تفصــيل مقتضى الحــال بقوله : « ان مقتضى الحال وهو الاعتبــار المناسب للحال ، واما أن يكون مختصا بأجــزاء الجمــلة ، أو بالجملتين فصاعدا أو لا يختص بشىء من ذلك ·

---

(١) دلائل الاعجاز ص ٤٠١ · (٢) دلائل الاعجاز ص ٦٥ ـ ٦٧ ·

أما الاول : فيكون اما راجعا الى نفس الاسناد ككونه عاريا عن التأكيد أو مؤكدا ... الخ . أو الى المسند ككونه محذوفا أو مذكورا ... الخ . أو المسند اليه كما ذكر مع المسند مع زيادة كونه مفردا فعلا أو غيره أو جملة اسمية أو فعلية ... الخ .

أما الثاني : وهو ما يختص بالجمل فكوصل الجملتين أو فصلهما .

أما الثالث : فالمساواة والايجاز والاطناب .

واذا تمهد هذا فنقول ان الحال أو المقام الذى يناسبه تنكير المسند اليه أو المسند يباين المقام الذى يناسبه التعريف ، ومقام اطلاق الحكم يباين مقام تقييده بمؤكده أو أداة قصر أو تابع أو ما يشبهه .. فلكل مقام وحال ما يناسبه .

وارتفاع شان الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب وانحطاط شأن الكلام بعدم مطابقته للاعتبار المناسب ، أى بمطابقته لمقتضى الحال أو عدم مطابقته له ، لأن الاعتبار المناسب هو نفس مقتضى الحال .

ثم قال : وهذا ـ أعنى تطبيق الكلام لمقتضى الحال ـ هو الذى يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم ، حيث يقول : النظم هو توخى معانى النحو فيما بين الكلم ـ على حسب الأغراض التى يصاغ لها الكلام » (١) .

وكما ميزوا بين الفصاحة والبلاغة ، ميزوا أيضا بين مسائل البلاغة وجعلوها ثلاثة علوم :

أولها ـ علم المعانى : وهو خاص بالبحوث المتعلقة بأحوال اللفظ التى بها يطابق مقتضى الحال ، وهى محصورة فى ثمانية أبواب هى : **أحوال الاسناد الخبرى ، أحوال المسند اليه ، أحوال المسند ، أحوال متعلقات الفعل ، القصر ، الانشاء ، الفصل والوصل ، الايجاز والاطناب والمساواة .**

---

(١) انظر المطول ص ٢٥ ـ ٢٨ .

وثانيها ـ علم البيان : وهو خاص بالبحوث المتعلقة بطـرق التعبير المختلفة عن المعنى الواحد ، وهى التشبيه والمجاز بأنواعه والكناية ·

وثالثها ـ علم البديع : وهو خاص بوجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة · وقسموا هـذه الوجوه الى ما يرجع الى المعنى مثل الطباق والمقـابلة والمشـاكلة ومراعاة النظيـر والمزاوجة واللف والنشر ، وما يرجع الى اللفظ مثل الجناس ورد العجـز على الصدر والقلب والسجع · وان كان من المهم أن نشير أن هذا التقسيم هو من صنع بدر الدين بن مالك وأن السـكاكى جعل البلاغة علمين اثنين الأول علم المعانى والثانى علم البيان (١) ·

وأشاروا الى مراتب البلاغة « فجعلوا لها حدا أعلى وهو حد الاعجاز وأسفل وهو ما اذا غير الكلام عنه الى ما دونه التحق بأصوات الحيوانات التى تصدر عن محالها بحسب ما يتفق من غير اعتبار اللطائف والخواص الزائدة على أصل المراد · وبين الطـرفين مراتب كثيرة متفـاوتة ، بعضها أعلى من بعض ، بحسب تفاوت المقامات ، ورعاية الاعتبارات ، والبعد عن أسباب الاخلال بالفصاحة (٢) ·

هذا اجمال لما صنعوه بالبلاغة التى ورثوها عن عبـد القاهـر واضحة المعالم وطيدة الأركان · ويمكننا القول بأننا لا نلاحظ فى صنيعهم اضافة جوهرية · بل هى جهـود بذلوها فى التبويب والتنظيم والحصر والتفسير · ولكننا أيضا نحب أن نسجل عليهم فى سرعة ما يلى :

مع اننا نحمد للسكاكى ومدرسته ما أفادته البلاغة على أيديهم من حسن التنسيق والتبويب ودقة التقسيم والتفصيل ـ فاننا نسجل أن السكاكى كان أول الجناة المسرفين على علم البلاغة باخضاعه لمنهج العـلوم العقليـة فأضـاع بهجته ، وأخـلق ديباجته ، كما كان أول الجناة عليهـا بالجائهـا الى مضايق الاختصار ، ووسمها بميسم التعمية والالغاز (٣) ·

فأصبحت على يديه قواعد تحفظ وأمثلة تردد ، وغاب فى ظل مدرسته اشراقة البيان ، ووضاءة التعبير التى كانت تطالعنا فى كتابة عبد القاهـــر وعرضه للقواعد ، وتحليله للأساليب ، وكشفه عن أسرار جمالها وتأثيرها ·

---

(١) انظر الصبغ البديعى ص ٥٠٥ ·

(٢) انظر المطول ص ٣٠ ـ ٣١ ·

(٣) الصبغ البديعى ص ٢٥٣ ·

ان حصرهم البلاغة فى المعانى والبيان ، واعتبارهم البديع وجوها تكسب الكلام حسنا بعد أن يكون قد استوفى فى مقومات بلاغته من مطابقته لمقتضى الحال وفصاحته ، وجعلهم التحسين الذى تكسبه هذه الوجوه الكلام عرضا خارجا عن حد البلاغة ، نقول ان صنيعهم هذا فيه اجحاف بمنزلة البديع الذى سبق أن نقلنا عن عبد القاهر أنه مما يتطلبه المعنى ويستدعيه ، وأنه ركن من أركان بلاغة الكلام ·

وقد عالج فضيلة أستاذنا الدكتور أحمد موسى هذه القضية فأعاد الحق الى نصابه ، ورد للبديع اعتباره ، وأعلى قدره ، ونوه بمنزلته بما لا مزيد عليه لباحث (١) ·

هذه صورة البلاغة بين يدى السكاكى ومدرسته ، بحسناتها وسيئاتها وقد ظلت مسيطرة على البحث البلاغى حتى عهد قريب حينما دبت الحياة من جديد فى الثقافة العربية ، وتخلصت شيئا فشيئا من روح التقليد التى أفسدت الملكات ، وقضت على روح التجديد والابتكار فى نهج الدراسة البيانية ·

والآن لنلق نظرة سريعة أيضا على ما استجد فى حقل البلاغة بعد أن تهيأ للبحث فيها مناخ جديد فى ظل النهضة الجديدة ·

* * *

التجديد فى حقل الدراسات البلاغية

يقول الدكتور بدوى طبانة بعد أن بين أن البيان قد أصابه ما أصاب سائر نواحى الحياة السياسية والاجتماعية والفنية من الضعف والانحطاط :
« ثم كان عصر الانبعاث الذى أخذت فيه هذه الأمة تصحو من غفلتها ، وتجدد فى حياتها ، وتنظم تفكيرها ، وتستمد لحاضرها ومستقبلها مددا من تراثها القديم فى العلم والتفكير » ·

وكان البيان ، أو كانت البلاغة العربية ، مما تنبهت الأذهان الى النظر فيه والوقوف على ما انتهى اليه أمره ، وبدا من النظر أن البداية الموفقة كانت بعيدة كل البعد عن النهاية المشوهة التى انتهى اليها ، فاذا كانت الأولى دليل قوة ، ومظهر فتوة ، فان الثانية بدت علامة ضعف وخمول ، وآية تقصير وجمود ·

---

(١) انظر الصبغ البديعى · فصل الصبغ البديعى من البلاغة ص ٤٦٧ ــ ٥٠٩ ·

حتى يئس كثيرون من هذا البيان الذى لا يعلم البيان ، ونفروا من تلك البلاغة التى تبعد بدارسيها عن البلاغة · وأصبح البيان علما نظريا يستظهر ولا يستظهر به على فهم الأدب أو تذوق تأليفه » (١) ·

وهذا تصوير صادق لما انتهت اليه البلاغة وعلومها · ولكن النهضة الجديدة قد بسطت عليها جناحها ، فتابعت سيرها مواكبة نواحى التقدم الأخرى ·

فرأينا الدعوات القوية للعودة مرة أخرى الى امهات كتب الأدب والنقد التى تفسدها طريقة المتأخرين وأساليبهم المنطقية ، وتفريعاتهم المتكلفة · وبذلت جهود فى نشر هذا التراث الخالد ، وأخذ المتأدبون ينهلون من ورده الصافى ، ويتصلون عن طريقه بالبلاغة الحية التى تعتمد على دراسة النصوص الأدبية لتضع يد الدارس على مواطن الجمال ، وتفتح بصيرته على أسراره · ولقد رأينا مثلا مجددا كالامام محمد عبده ، لا يكتفى بالدعوة الى هذا المنهج ، بل يتولى بنفسه تدريس بعض هذه الكتب · حتى يكون قدوة وصاحب مدرسة (٢) ·

وعادت الحياة مرة أخرى الى البلاغة ليخضر عودها ، وتتفتح أزهارها · غير أن البلاغة فى مسيرتها الجديدة لم تكتف بهذا المورد تنقع به غلتها بل اتجه الدارسون أيضا الى الثقافات الأجنبية بآدابها وفنونها ، وعادوا يحاولون تلقيح البلاغة العربية بما حملوه معهم ، ولم يكونوا على سواء فى تميز شخصيتهم وتماسكها ، فمنهم من جرفه التيار وتنكر لأرومته فلا يرى خيرا الا فى المستورد الدخيل ، واذا وجد شيئا فى البلاغة العربية لا يستطيع انكار سموه ، ادعى أنه منقول عن بلاغة اليونان وفنونهم ، مرتكبا فى ذلك كل شطط ، متعاميا عن كل حجة (٣) ·

ومنهم من نهج نهجا عادلا · فاستغل علمه فى الكشف عن كنوز تراثنا البلاغى ، وما فيه من أصالة وعمق ، يطاول بهما أرقى ما وصل اليه علم

---

(١) انظر مقدمة البيان العربى ص : ج ـ د ·

(٢) انظر دراسات اسلامية ص ١٨٠ ·

(٣) انظر نموذج لهذا التحامل : مقدمة كتاب نقد النثر للدكتور طه حسين ·

الجمال من نظريات ومقاييس (١) · وأعاد عرض هذه الكنوز مستفيدا مما حصله من معارف ·

فماذا نجد عند هؤلاء ؟

نراهم يتحدثون عن لونين من الأساليب ·

أولهما : الأسلوب العلمى الذى يخاطب العقل ، ويعبر عن الأشياء كما هى فى الواقع دون أن يسمح لمشاعر الكاتب أن تتدخل فيما ينشىء · ومن هنا كان التعبير عن الشىء الواحد بهذا الأسلوب لا يتفاوت ولا يرد عليه التمايز مهما تعدد المتحدثون عنه ·

وثانيهما : الأسلوب الأدبى · الذى يعبر عن التجارب الشعورية تعبيرا موحيا فلا يكتفى فيه بذكر الحقائق المجردة ، بل يصوغ الأديب عبارته معبرة عن احساسه بالأشياء ووقعها فى نفسه وما تثيره من عواطف ومشاعر · ومن هنا كان تفاوت الأساليب فى التعبير عن الشىء الواحد ، مادام كل أديب يعبر عن احساسه الذاتى ، وتتمايز الأساليب بمقدار ما فيها من صدق فنى ، وقدرة على نقل المشاعر وتصويرها · وفى هذا المجال لا يمكن الاكتفاء فى التعبير بمعانى الكلمات اللغوية ، بل لابد لتصوير المشاعر ونقلها الى الآخرين أن نستعين برشاقة الكلمات وتأليفها وموسيقاها ومواقعها فى التراكيب ومعانيها المجازية وغير ذلك مما يعين على تصوير العواطف · كذلك لابد أن نستعين بالخيال باعتباره أنفع المواهب النفسية التى تعين على ذلك ، فهو النبع الذى تصدر عنه الصور الأدبية التى تعرض المعنويات فى صورة حسية مؤثرة ·

كما نراهم يتحدثون عن الأسلوب التجريدى والأسلوب التصويرى ، ويفصلون القول فى هذا وذلك محددين لكل مجال استخدامه وعوامل تأثيره (٢) ·

---

(١) انظر النقد الأدبى الحديث ص ٢٩٣ ـ ٢٩٤ حيث وازن بين عبد القاهر وبين « بندتو كووتشيه » فى رأى كل منهما فى مسالة اللفظ والمعنى ·

وراجع أيضا كتاب « النقد المنهجى عند العرب » ص ١٨٣ للدكتور محمد مندور حيث وازن بين عبد القاهر والعالم السويسرى « فردناند دى سوسير » فى نفس الموضوع ، وقال « ان مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل اليه علم البلاغةفى أوروبا لايامنا هذه » ·

(٢) انظر أصول النقد الأدبى للاستاذ أحمد الشايب · فصل الخيال والصورة ·

وقد سبق أن قال عبد القاهر : « الكلام على ضربين · ضرب أنت تصل الى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، وذلك اذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلا بالخروج فقلت : خرج زيد · وضرب آخر أنت لا تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن اللفظ يدلك على معناه الذى يقتضيه موضوعه فى اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها الى الغرض » (١) ·

وما قاله عبد القاهر قريب مما نسمعه من المحدثين فى هذا الموضوع · وان كان لهم فضل البسط والتعمق فى فهم النوازع النفسية الكامنة وراء نتاج الأديب وتحليل الخيال · وهذا طبعى فى قوم استفادوا بعلوم القرن العشرين وبالتقدم فى الدراسات النقدية والنفسية ·

ويلاحظ الدكتور محمد نايل ـ أن النقد الحديث يوشك أن يسير فى نفس الطريق الذى أفسد البلاغة العربية القديمة . حينما استجابت لأساليب المنطق والفلسفة ، وفى كثرة التفريع والتقسيم · اذ بدأ يتورط فى تقسيمه الخيال الى تفسيرى وتأليفى وابتكارى ، وهى محاولة ستؤدى الى اصابة الخيال حديثا بما أصيب به قديما (٢) ·

وفى مجال التصوير الأدبى نراهم يتحدثون عن التخييل الحسى والتجسيم · ويقسمون هذا وذاك · فيذكرون من أنواع التخييل :

التشخيص : ويتمثل فى خلع الحياة على المواد الجامدة ، والظواهر الطبيعية والانفعالات النفسية ، مثل قوله تعالى : « والصبح اذا تنفس » (٣) ·

وقوله : « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا » (٤) ·

وقوله : « وأرسلنا الرياح لواقح » (٥) ·

---

(١) انظر ص ٢٠٢ من دلائل الاعجاز ·

(٢) انظر اتجاهات وآراء فى النقد الحديث · دكتور محمد نايل ص ٨٨ ـ ٨٩ ·

(٣) التكوير : ١٨ · (٤) الأعراف : ٥٤ ·

(٥) الحجر : ٢٢ ·

وقوله : « **ولما سكت عن موسى الغضب** » (١) ٠

فالصبح يتنفس ، والليل يسرع فى طلب النهار ، والرياح تلقح وتنتج، والغضب يهيج ويسكن ٠

التخيل بالصور المتحركة ، يعبر بها عن حالة من الحالات ، أو معنى من المعانى ٠ مثل قوله تعالى : « **وكنتم على شفا حفرة من النـــار فأنقذكم منها** » (٢) ٠ تعبيرا عن حالة المسلمين قبل أن يسلموا ٠

التخيل بالحركة المتخيلة ، التى تلقيها فى النفس بعض التعبيرات ٠ مثل قوله تعالى : « **وقدمنـــا الى ما عملوا من عمل فجعلنـــاه هبـــاء منثورا** » (٣) ٠

فها هى ذى الأعمال قد صارت هبـاء منثورا ، لا تحصل منـه على شىء ٠ كما أن لفظة « **قدمنا** » تخيل للحس حـركة القـدوم التى سبقت نثر العمل كالهباء ٠

التخيل بالحركة السريعة المتتابعة ، مثل قوله تعالى :

« **ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق** » (٤) ٠

التخيل بالحركة الممنوحة لما شأنه السكون ٠ كقوله تعالى : « **واشتعل الرأس شيبا** » (٥) ٠

فحركة الاشتعال هنا تخيل للشيب فى الرأس حركة كحركة اشـتعال النار فى الهشيم ٠

---

(١) الأعراف : ١٥٤ ٠ (٢) آل عمران : ١٠٣ ٠

(٣) الفرقان : ٢٣ ٠ (٤) الحـج : ٣١ ٠

(٥) مـريم : ٠٠٤ ٠

أما التجسيم فمعناه احالة المعانى والحالات صورا وهيئات مثل قوله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم ، أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف » (١) ·

وقوله تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » (٢) ·

الى آخر ما ذكروه من ذلك (٣) ·

وواضح أن ما ذكر من أمثلة يمكن رده الى طرق التعبير البيانية فى البلاغة القديمة · من تشبيه ، واستعارة تصريحية ومكنية ، وكناية ، ومجاز لغوى وعقلى ، وتعريض ، والتفات ، وغير ذلك · ولكنهم على كل حال تقدموا بالبحث خطوة جديدة وركزوا على الأثر النفسى لهذه الطرق ، وما تمد به الأسلوب من قوة ، وتضفى عليه من جمال يحقق هدف الأدب وهو التأثير فى السامع ·

غير أننا يجب أن نلاحظ أيضا أن كثيرا من مقاييس الجمال التى نقلوها الينا عن الثقافات الأخرى هى مقاييس غريبة عن أدبنا العربى ، لا تصلح له وبالتالى فمن التحكم اخضاعه لها ، والحكم عليه بموجبها · وان كانت صالحة هناك فى بيئتها ، حيث الأجناس الأدبية الخاصة التى تصلح لهذه المقاييس وتخضع لها ·

ولنأخذ مثلا لذلك حديثهم عن الوحدة العضوية فى الموضوع ، كمقياس من مقاييس الجمال فيه ، ويعنون بالوحدة العضوية « وحدة الموضوع ووحدة المشاعر التى يثيرها الموضوع » ويستلزم ذلك ترتيب الأفكار والصور ترتيبا تتقدم به القصيدة شيئا فشيئا ، حتى تنتهى الى خاتمة يستلزمها ترتيب الأفكار والصور على أن كون أجزاء القصيدة كالبنية الحية ، لكل جزء وظيفته فيها ، ويؤدى بعضها الى بعض عن طريق التسلسل فى التفكير والمشاعر (٤) ·

---

(١) ابراهيم : ١٨ · (٢) آل عمران : ٣٠ ·
(٣) انظر التصوير الفنى فى القرآن · للاستاذ سيد قطب ص ٦١ ـ ٧٢ ·
(٤) النقد الأدبى الحديث ص ٤٠١ ·

وبهذا المقياس يهجمون على الأدب العربى جاهليه واسلاميه . ويحكمون عليه من خلال هذا المقياس وحده ، ويتهمونه بعدم الترابط ، وأن الوحدة فيه هى وحدة البيت لا القصيدة ، فسواء قدمت أحد الأبيات أو أخرته أو حذفته ، فان ذلك لا يغير شيئا فى القصيدة العربية • وبالتالى فالأدب العربى كله هابط لا يستطيع التحليق بجوار غيره من الآداب •

ومع أن ترابط العمل الأدبى ووحدة أجزائه من بين الموضوعات التى اهتم بها النقد العربى منذ القدم ، ويمكننا أن ننقل عنهم فى ذلك نصوصا متعددة الا أن ذلك لا يكفى ــ فى نظر المحدثين ــ ولا يصل الى مرتبة الوحدة العضوية التى نقلوها وأعجبوا بها •

فنحن نقرأ فى « العمدة » لابن رشيق نقلا عن الحاتمى قوله :

« من حكم النسيب الذى يفتتح به الشاعر كلامه أن يكون ممزوجا بما بعده من مدح أو ذم ، متصلا به غير منفصل عنه • فان القصيدة مثلها مثل خلق الانسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر ، وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم عاهة تتخون محاسنه ، وتعفى معالم جماله »(١)•

ونقرأ لابن طباطبا قوله : « وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره ، على ما ينسقه قائله • فان قدمت بيتا على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب اذا نقص تأليفها • فان الشعر اذا أسس تأسيس فصول الرسائل القائمة بأنفسها ، وكلمات الحكمة المستقلة بذاتها ، والأمثلة السائرة الموسومة باختصارها ، لم يحسن نظمه ، بل يجب أن تكون القصيدة كلها ككلمة واحدة ، فى اشتباه أولها بآخرها »(٢) •

ونقرأ لعبد القاهر قوله : « اعلم أن من الكلام ما أنت ترى المزية فى نظمه الحسن كالأجزاء من الصبغ ، تتلاحق وينضم بعضها الى بعض ، حتى تكثر فى العين فأنت لذلك لا تكبر شأن صاحبه ، ولا تقضى له بالحذق والأستاذية ، حتى تستوفى القطعة ، وتأتى على عدة أبيات • وذلك ما كان من الشعر فى طبقة ما أنشدتك من أبيات البحترى » (٣) • يعنى : « بلونا ضرائب من قد نرى » •••

(١) العمدة جـ ٢ ص ٩٤ •
(٢) ابن طباطبا • عيار الشعر ص ١٢٦ ـ ١٢٧ •
(٣) دلائل الاعجاز ص ٧٠ •

ولو ذهبنا نتتبع الآثار الدالة على اهتمام النقد العربى بوحدة العمل الأدبى وترابطه ، لما انتهينا منها . ومع ذلك يصر دعاة الوحدة العضوية على أن النقد العربى لم يفطن الى وحدة العمل الأدبى فى القصيدة وأن ما تناثر هنا وهناك من مثل هذه الأقوال انما هو نتيجة لتأثر هؤلاء النقاد بفكرة الوحدة العضوية التى كشف عنها أرسطو دون أن يدركوا أبعادها (١) متجاهلين الفروق بين الأدب اليونانى والعربى . وأن مقياس الوحدة العضوية يصلح هناك ، حيث الشعر فى صورة ملاحم ومسرحيات ، الترابط بين أجزائها ترابط عضوى فعلا ، ونمو الحوادث فيها يسير بصورة منطقية متتابعة . أما الشعر العربى فهو بجملته من الشعر الغنائى الذى لا يمكن لطبيعته أن تستجيب لمثل هذه القيود الحاسمة .

على كل ، هذا نموذج مما افرزته ثقافة هؤلاء الذين اتيح لهم الاتصال بالثقافات الأخرى ، وقد سبق أن قلنا انهم ليسوا فى هذا سواء ، ولا يمنعنا ذلك من أن نستفيد من بحوثهم ونظراتهم ، مادامت تثرى ما عندنا وتضيف اليه .

ولعل صورة البلاغة فى ماضيها وحاضرها ، بعد هذا العرض الخاطف ، قد تحددت ملامحها ، وتجلت سماتها ، بدرجة تسمح لنا بالانتقال الى النقطة التالية : وهى صلة ذلك كله بالدعوة . والله المستعان .

★★★

● ثانيا ـ صلة البلاغة بالدعوة :

وظيفة البلاغة فى الحياة :

يقتضينا الحديث عن صلة البلاغة بالدعوة أن نتعرض أولا لوظيفة البلاغة فى الحياة الانسانية وصلتها بها . والبلاغة كصفة للكلام هى الجانب الذى يميز لونين من القول ، أحدهما يعبر به الانسان عما فى عقله من افكار ، وما يتوارد عليه من خواطر ذهنية ، تتصل بقضاء مصالحه ، وما تتطلبه ضرورات الاجتماع الانسانى من تبادل المنافع والخبرات التى يكتسبها نتيجة للتفكير فى حقائق الوجود ، وما يلمحه بينها من ترابط وما تنشأ عنه من أسباب أو تنتهى اليه من نتائج .

---

(١) انظر النقد الأدبى الحديث ص ٢١٦ ـ ٢١٧ .

وهـذا اللون من الكلام يفى بحاجة الانسان الفكرية ، ويتناسب مع هـذا الفكر فى دقته ووضوحه ، ويسير فى خط مستقيم يحدوه التسـلسل المنطقى ، ويحدد اتجاهه الترابط الذهنى بين المقدمات ونتائجها ، والظواهر وأسبابها · ولكنه لا يفى بما تتطلبه طبيعة الانسان وفطرته الغنية المتعـددة الجوانب والملكات ·

ومنذ كان الانسان لم يقنع أبدا بهذا اللون من التعبير · واهتدى الى ألوان أخرى ، رأى فيها القدرة على التعبير عن ذاته بكل جوانبها ، ونقل مشاعره وأحاسـيسه الى جـانب عقله وفكره · فكانت الفنون من رسـم وتصوير وموسيقى ، ثم جمع خواص هـذه الفنون جميعا وزاد عليها فى التعبير الأدبى أو البيان الفنى ، الذى يأخذ من الموسيقى جمال ايقاعها فى أسلوبه ، ومن الرسم جمال معانيه فى وصفه ، ومن التصوير فكرته ، ويزيد على ذلك الافصاح ، والوضوح والقدرة على الاتصال بكل ما فى الحياة ، والاستجابة لكل مطالبها المـادية والروحية التى تمثل جوانب الحضـارة الانسانية ·

هذا الأدب هو اللون الثانى من الكلام الـذى يرجع ما فيـه مـن جمـال وتأثير الى البلاغة وألوانها ، لأن البلاغة ذاتهـا ــ كقواعد وعـلم ــ هى حصاد استقراء النصوص الأدبية ، وتتبع أسباب الجمال فيها ، وصياغتها فى قواعد وضوابط كما سبق أن أوضحنا ·

وعلى هـذا فعنـدما نتحـدث عن وظيفة الأدب فى الحياة ، فان ذلك يعنى أننا نتحـدث عن وظيفـة البـلاغة فى الحياة ، لأن البلاغة هى منـاط الأدب وسر تأثيره ، وهى الجانب الذى به يؤدى وظيفته ويحقق هـدفه ·

والأدب أو الكلام البليغ هو تعبير عن عقل الانسان ووجدانه معـا ، يصور به الأديب ما يجده فى نفسه من معان ومشاعر ، نتيجة لمـا يعيشـه من تجارب ينفعـل بها ، وتولد فى نفسه ألوانا من الأحاسيس يودعها أدبه ، ويصورها ببيانه ويعرضها على الناس ، ليشاركوه فى تجربته ، ويثير فيهم مشاعرهم السامية القوية · وهو بذلك يقوم بدور من يتلقى بعبقريته من الحياة جمالها وفلسفتها ، فيبلغها للناس فى صورة تعبير جميل ، فيمتعهم ويعينهم على فهم الحياة ، وبالتالى يؤثر فى سلوكهم ويحدو خطاهم ·

ومن هنا كانت وظيفـة الأدب أو البلاغة فى الحيـاة ، هى السـمو بالانسان وتهذيبه · ويتجلى ذلك فى افادته والتأثير فيه ·

أما عن تأثيره ، فيقول الباقلاني بعد أن أشار الى أن القرآن فى أعلى منازل البيان : « واذا علا الكلام فى نفسه كان له من الوقع فى القلوب والتمكن فى النفوس ما يذهل ويبهج ، ويقلق ويؤنس ، ويطمع ويؤيس ، ويضحك ويبكى ، ويحزن ويفرح ، ويسكن ويزعج ، ويشجى ويطرب ، ويهز الأعطاف ، ويستميل نحوه الأسماع ، ويورث الأريحية والعزة ، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجودا ، وله مسالك فى النفوس لطيفة ، ومداخل الى القلوب دقيقة »(١) ·

اما عن افادته : « فلسنا فى حاجة الى أن نشير الى اهمية الشعر ـ والأدب جميعه ـ فى رقى النوع البشرى وتهذيبه · فقد عمل الشعر كما عملت العلوم على اسعاد الانسان ، وكان للخيال الذى يتضمنه الشعر ما للحقائق العلمية التى تقررها العلوم من الأثر الكبير فى تغيير نظم الحياة ، وتكييف عقلية الآدميين · فبينا الحقائق العلمية تكون مقررة القواعد ، ثابتة الأساس ، سهلة الاتباع ، اذا بالخيال الذى يتخلل الشعر عون على أن يأخذ بيد الانسان ليرفعه من وهدة عميقة مظلمة الى شاهق عال مرتفع ملىء بالنور والحياة ، حتى يمكنه أن يطل على سبيل تقدمه ورقيه ، فاذا هو يراها شاخصة ، واضحة · واذا هو بتكرار النظر يعرفها ويتحقق مسالكها ، واذا هو بعد فترة وجيزة أو غير وجيزة يضع قدمه على أبوابها ، فيسير فيها على طريق مستقيم »(٢) ·

اذن فالبلاغة لها دورها فى الحياة ، الذى يمكن اجماله فى الافادة والتأثير ، اذ بها نرضى ونسعد مختلف الاتجاهات النفسية للانسان . ونفى بحاجات القوى المتنوعة فيه ، من معرفة علمية ، وتذوق متفنن ، وتطلع الى حياة أفضل ، وبعث لكل طاقات النفس وقواها ، لتحقق فى الحياة ما ترجوه ، نتيجة لوضوح الشعور به ، وقوة الاحساس بالحاجة اليه ··

---

(١) اعجاز القرآن ص ٤١٩ ·

(٢) من كتاب أصول النقد الأدبى · ص ٧٨ · نقلا عن دائرة المعارف البريطانية ·

● صلة البلاغة بالدعوة :

واذا كانت الدعوة هى ـ كما قدمنا ـ محاولة استمالة الناس الى هدف معين ، واقناعهم به اقناعا يصل الى الايمان الذى يوجه السلوك ويلون كل ما يصدر عن المؤمن بلونه المميز ··· اذا كان هذا شأن الدعوة فيمكننا أن نقول فى ثقة كاملة ، ان البلاغة هى أداة الدعوة وسلاحها المرهف ، الذى به تحقق أهدافها وتذود عن حماها ، وتوسع دائرة نفوذها ·

وهذه الصلة بين البلاغة والدعوة توجبها وظيفة البلاغة فى الحياة ، ويشهد لها تاريخ الدعوات وسجل النهضات السياسية والاقتصادية والفكرية ·

ماذا يريد الداعية ؟ انه يريد تغيير واقع لا يرضى عنه · ونقطة البداية فى كل تغيير هى النفس الانسانية ·

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »(١) ·

وتغيير النفوس يستوجب تعاملنا مع جميع ملكاتها وجوانبها الفكرية والوجدانية والارادية ، وألا نتجاهل أيا من هذه الجوانب اذا كنا نريد الوصول الى نتائج حاسمة ·

والبلاغة هى المؤهلة للقيام بهذا الدور ، لأن الكلام البليغ فى جوهره هو الذى يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع باصابة موضع الاقناع من العقل ، والوجدان من النفس · واذا نجح البليغ فى ذلك كانت ثمرته تحريك الهمة وتوجيه الارادة للعمل وفق ما حصله من اقتناع عقلى وترسب فى أعماقه من انطباعات نفسية ·

والداعية لا يحتاج الى أكثر من هذا ، ونجاحه وفشله انما يقاسان بالمدى الذى يصله فى هذا السبيل · فعليه أن يهيمن على السامعين ، ويمسك بمقاليد نفوسهم ، ويصل الى أعماق مشاعرهم ، بملاحظة أحوالهم ، وجعل كلامه مطابقا لمقتضاها ، ولديه فيض من الأساليب ، ووفرة من وسائل التأثير والاقناع · فهو يشرح مبينا ومقنعا أو ينذر مرهبا ومحذرا ، أو يعظ مرغبا ومستميلا ، مستخدما فى كل ذلك الحجة الكاشفة والتصوير المؤثر ، والتأكيد المثبت للمعانى ، الى آخر ما يملكه من « وسائل تمكنه من تحقيق غايته » ·

---

(١) الرعد : ١١ ·

أما عن شــهادة التاريخ للبلاغة بدورها واقتــدارها ، فيكفى فيه أن نستعرض تاريخ التغييرات الانسانية ، وفى طليعتهــا الدعوات الدينيــة ، لنرى شأن البلاغة فيها · فهى مدينة للبلاغة بتجلية أفكارها ومبــادئها ، والدعوة اليها ، ونشرها فى الجماعات · فالقرآن الكريم انما بلغ غايته فى التأثير بل والاعجاز ببلاغته ، والرسول ﷺ كان أفصح العرب وأبلغهم بيانا · ومن الظواهر التى لا تتخلف أن يكثر الشعراء والخطباء والكتاب فى عصور النهضات والتغييرات التاريخية ، أو فيما يسبقها تمهيدا لها · لاحظ ذلك فى قيام الدولة الأموية والعباسية ، بل وفى الثورة الفرنسية ، وفى بعث الحضارة العربية ، بل لاحظه فى العناية البالغة التى توليها الدول حديثا لوســائل اعلامها وأجهـــزة الدعاية فيها ، وتفننها فى طـرق التأثير فى الجماهير وتوجيههم والسيطرة على سلوكهم ·

وبعد · فهــذه قضية فيها من الوضــوح ما يغنينا عن بســط الأدلة وايراد الشواهد أما وقد وصل بنا الحديث الى هــذا الحــد ، فلننتقل الى ما هو أهم وأجدى فى نطاق بحثنا · لننعم برحلة مبــاركة مع بلاغة القرآن فى دعوته الى أهدافه

والله المســتعان ومنه التوفيق

★ ★ ★